﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [فصلت: 43]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لا بـدّ للحقِّ حتَّى يتمكَّن من الابتلاءِ والمعاناةِ

لمّا وُصف الذِّكرُ بامتناعِ الباطلِ عنه، وامتناعه على لحوقِ النّقصِ به؛ توجَّه هنا إلى رسول الله ﷺ بالتّسليةِ والتّثبيت له[1]، بما يُصمِدُه أمام أقاويلِ قومِهِ وأباطيلِهم، فقدّم سببَ التسليةِ وهو عصمةُ القرآنِ من الأباطيلِ، ثمّ أتبَعَه بالتَّسليةِ بخطابِ الرّسولِ، فذكَرَ امتناعَ القرآنِ من الباطلِ أوّلا، ثمّ ذَكَرَ ما يمتنع به الرّسولُ ويَعتزّ به أمامَ أقاويلِ الكَفَرَةِ بهذا الباطلِ ثانيًا.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الاشـتراكُ في المُـصـابِ من دواعـي التَّسلّي والتَّصبُّرِ

ما يُقال لك من التّوحيدِ وإخلاصِ العبادةِ للّه إلّا ما قد قيل للرُّسُلِ من قبلك؛ فإنّ الشّرائع كلّها مُتَّفقةٌ على ذلك[2]. وكذلك ما يقول لك كُفّار قومِك إلّا مِثْلَ ما قيل للرّسلِ مِنْ كفّارِ قومِهم من الكلماتِ المُؤذيةِ، والمطاعن في الكتبِ المنزّلةِ[3]، فلمّا تشابهت قلوبُهُم في الكُفرِ؛ تشابهتْ أقوالُهُم، وقد صبَرَ الرُّسلُ - عليهم السلام - على أذاهُم وتكذيبِهم، فاصبرْ كما صبرَ مَنْ قبلَكَ. ثمّ دعاهم إلى التّوبةِ والإتيانِ بأسبابِ المغفرةِ، وحذَّرَهم من الاستمرارِ على الغَيِّ[4]، فقال: إنّ ربّك لذو مَغفرةٍ لذنوبِ التّائبين، وذو عقابٍ مُؤلمٍ لمَن أصرَّ على كُفْرِهِ وتكذيبِهِ[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 202.
(2) القنوجيّ، فتح البيان: 12/ 260.
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 239.
(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 750.
(5) مجمع الملك فهد، التّفسير المُيسَّر.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ جملةِ: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾ ممّا قبلَها:

التّنازعُ بين أهلِ الحقِّ وأهلِ الباطلِ سُنَّةٌ وجوديّةٌ

جملة ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ "جوابٌ لسؤالٍ يُثيرُهُ قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ وما تخلَّل ذلك من الأوصافِ فيقول سائلٌ: فما بالُ هؤلاءِ طعنوا فيه؟ فأُجيب بأنَّ هذه سُنَّة الأنبياءِ مع أُممِهم لا يُعدَمون مُعاندين جاحدين يكفرون بما جاءوا به"[1]. فالقائلُ على هذا الوجهِ هم الكافرون؛ أيْ: ما يُقال لك من الكَفَرَة.. وبهذا الاعتبارِ فالكلامُ مَسوقٌ مساقَ الإخبارِ عن ديدنِ الكَفَرَةِ مع رسالاتِ اللّهِ سبحانه.

بلاغة الكناية:

في التماسِ السّيَرِ وقايةٌ

وفي الإخبارِ بهذا المضمونِ الوارد في جملة ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ كنايةٌ عن تسليةِ النَّبيِّ ﷺ؛ لأنّه يلزمُ عن بيانِ أحوالِهم مع نظرائِهِ من الرُّسُلِ تسليتُه بسيرةِ إخوانِهِ، فيتقوَّى بهم ويتعزَّى، ولا يكترثُ بأحوالِ الكَفَرَةِ وأقاويلِهم[2].

دقيقة استظهار التَّعريض من الآية:

مَنْ عُدِمَ الخيرَ في الأخلافِ؛ وجَدَه في الأسلافِ

كما أنّ في جملة ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ استنهاضًا له على التَّصبُّر والتَّأسّي بأسلافِهِ المُرسلين كما صبروا وعَزَموا ولم يجزعوا ويَهِنوا، وهذا من طريقِ التَّعريضِ؛ فاجتمعَ في التَّركيب كنايةٌ وتعريضٌ، والتَّعريضُ أخفى؛ لثبوته من جهةِ المفهومِ بالقرينةِ والإشارةِ، لا من طريقِ اللَّفظِ كما الكناية[3].

تخريجُ الجملةِ على الاستئنافِ:

تتبّعُ أحوالِ الأنبياءِ هو المقياسُ النّاجعُ من تحطيمِ الابتلاءِ

كما يصحُّ اعتبارُ جملةِ: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 309، 310.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 310.
(3) يحيى بن حمزة، الطِّراز لأسرار البلاغة: 1/ 189 - 190.

استئنافيّةً[1] على اعتبارِ أنَّ القائلَ هو اللّه ﷻ[2]؛ أيْ: ما يُقال لك من اللّه وحيًا إليك وتنزيلًا عليك ليس بدعًا ممّا قيل للرُّسل من قبلك، فليس العيبُ منك في شيءٍ؛ بل هذا دأبُ الكافرين أبدًا مع وحي اللّهِ ورُسُله. وهذه الجملةُ على هذا المعنى يسوغُ إجراؤها على الاستئنافِ البيانيِّ كذلك كما المعنى الأوّل، فمجرى المَعنَيَيْن سائرٌ إلى نفْسِ المَصبِّ كما يظهرُ.

غرضُ التَّعبيرِ بأسلوبِ القَصْرِ في: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾:

جاء التَّعبيرُ بأسلوبِ القَصْرِ (النّفي مع الاستثناء) في قولِه: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ لتحقيقِ التَّثبيتِ والربْطِ على قلبِ النّبيّ ﷺ، فالقصرُ يُفيد التَّأكيدَ بأنّ ما يواجهه النَّبيُّ من قولٍ أو إنكارٍ أو أذًى ليس بدعًا؛ بل هو سُنَّةٌ ماضيةٌ مع الرُّسُلِ قبله، فلمّا كان المقامُ مقامَ تعزيةٍ وتسليةٍ ناسبَ إجراؤه على طريقةِ القَصْرِ؛ لأنّ مقصودَ العبارةِ التّحريرُ والتّخليص للمضمونِ، فهو جارٍ مجرى الحُكمِ القاطعِ والخبرِ الحاسمِ، فإن قيل: هذا توجيهُ القَصْرِ على أنّ القائلَ الكافرون، فما توجيهُ القصرِ على أنّ القائلَ اللّهُ؟ فالجواب: على معنى: (ما يقال لك من اللّه إلّا ما قد قيل للرسل)، ففائدةُ القصرِ هو تأكيدُ العنايةِ بسُنّةِ اللّه سبحانه في الوحي وتنزيل الكتبِ على رُسلِه، فالسّياقُ يتعلَّق بتحقيقِ مكانةِ القرآنِ والتّأصيلِ لموجباتِ الإيمانِ به، بما يحملُهُ من أوصافِ الاستحقاقِ والتأهُّلِ في قولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾؛ فجاء قولُهُ: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ تحقيقًا لهذا المقام الرِّساليِّ، كأنّ اللّهَ يقول لنبيِّه: (ليس الكتابُ الذي نزلَ عليك بِدْعًا، فما قيلَ لك فيه قد قلناهُ من قبلك للرُّسُلِ بما أوحيناه إليهم من التّشريعِ

حـــالُ أغـلـبِ الخَلْقِ الحَيْدَةُ عن الحقِّ

(1) الخطيب، التّفصيل في الإعرابِ: 24/ 330.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 569.

والتّنزيلِ، فاستوثِق به - يا محمّد - واستمسك بالذي أوحي إليك، فأنَّى لهم أن يكفروا رغمَ اطِّرادِ هذه الحقيقةِ وثبوتِها؟! وأنّى لك أن تجزعَ منهم، وتلك حالُ أغلبِ الخَلْقِ حتّى مع مَن سبقوكَ من الرُّسلِ، فلم يسلموا من التَّكذيبِ والعداواةِ، فاصبر صبرًا جميلًا).

سِرُّ اصطفاءِ النَّفي والاستثناءِ (﴿مَّا﴾، ﴿إِلَّا﴾) طريقًا للقَصْرِ:

يُجتَلَبُ للمُعانِدِ والمُرتابِ ما لا يُجتَلَبُ لغيرِهِما في الأُسلوبِ والخِطابِ

لم يَقُلْ في السّياقِ الكريمِ: (إنّما يُقالُ لك ما قد قيل للرُّسل)؛ بل آثَرَ النّفيَ والاستثناءَ طريقًا للقَصْرِ؛ لأنّه في مقامِ الاحتجاجِ وتحذيرِ الكافرين والتّعريضِ بهم في دأبِهم على حالِ العِنادِ، وهي حالٌ لهم مُطَّردةٌ في كلِّ جيلٍ ومع كلِّ رسولٍ، كأنَّما هي حالٌ يتوارثونها. وإذا كان ذلك كذلك فلا بُدَّ في تقريرِ المضمونِ من مواجهةِ المُنكرين والمُرتابين مع إيلاءِ العنايةِ بصيانةِ قلوبِ الموحِّدين بتثبيتِهم، ودحضُ الإنكارِ والتّرديد يلزمُهُ اصطفاءُ النَّفي والاستثناءُ[1]؛ فهو أقوى من (إنّما) في شُمولِ القَصْرِ وتوكيده؛ فـ(إنّما) تُثبِتُ المعنى صراحةً وتنفي خلافه ضمنًا، كما في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ [يونس: 20]؛ فقصرُ الغيبِ على اللّهِ ثبوتٌ صريحٌ من التَّركيبِ، ونفي علم الغيبِ عَمَّن عداه حاصلٌ ضمنًا، فالثبوتُ صريحٌ، والنّفيُ ضمنيٌّ؛ ولكن في أسلوبِ النَّفي والاستثناءِ يجتمعُ الإثباتُ والنَّفيُ صراحةً.

دلالةُ بناءِ الفعلِ بما لم يُسمّ فاعلُهُ ﴿يُقَالُ﴾ وبصيغةِ المضارعِ:

يـمـوتُ فـاعـلُ الفظائعِ وتبقى أفاعيلُهُ شاهِدةً

بناءُ الفعلِ بما لم يُسم فاعلُهُ في قولِهِ: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾؛ لتوجيهِ العنايةِ إلى مضمونِ القولِ لا إلى القائلِ؛ لإفادةِ أنّ ما يُقالُ للنّبيِّ ﷺ من تبيين أحوالِ المُكذِّبين ووعيدِهم بما يستحقّونه وبيان عاقبةِ أمرهم هو سُنّةٌ جاريةٌ لكلِّ الرُّسلِ مقولةٌ فيهم باطّرادٍ، فلا يهمّ القائلُ ما دام المقول هو المقصود، ففي ذلك البناءِ ﴿يُقَالُ﴾ تأكيدٌ على وحدةِ الرِّسالةِ بين عمومِ الرُّسلِ.

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 2/ 250.

وصيْغَ ذلك بالمضارعِ لتكرارِهِ ولتجدُّدِهِ عبر الزّمنِ، فكلّما جاءَ رسولٌ قيلَ له ذلك، وهذا التّوجيه مبنيٌّ على أنّ القائلَ هو اللّهُ سبحانه.

وأمّا على اعتبارِ أنّ القائلَ هم الكفّارُ؛ فبناءُ الفعلِ للمجهولِ فيه تقليلٌ من شأنِ الفاعلِ وعدمِ الاعتدادِ به؛ فأشارَ بذلك إلى أنّهم (الكفار) غير مُهمّين في السّياقِ، وأنّ العبرةَ لمضمونِ القولِ لا للقائلِ. كذلك في إبهامِهم ببناءِ الفعلِ للمجهولِ إيذانٌ بأنّهم ليسوا حالةً فريدةً؛ بل معهودة مُتكرّرة، فطيُّهم يُغني عن إظهارِهم؛ لأنّ الفاعلَ أنموذجٌ مُتكرِّرٌ في الأجيالِ وحيواتِ الرُّسلِ ﷺ. كما أنّ جَعْلَ القائلِ مجهولًا فيه نوعُ تخفيفٍ على نفسيَّةِ النَّبيِّ ﷺ ، بإشعارِهِ أنّ ذلك الأذى القائلون به ليس موجَّهًا له وحده ﷺ ؛ بل هو جزءٌ من سُنَّةِ اللّهِ مع كلِّ الأنبياءِ، وفي ذلك تعزيزٌ لمفهومِ الابتلاءِ المشتركِ الذي يُسلّي النّفْسَ ويُعزّيها ويُخفِّف عنها. كما أنّ إبهامَ الفاعلِ فيه إشارةٌ لعمومِ القائلين الذين يتعذَّرُ حصرُهُم في فئةٍ أو قومٍ بعينِهم، فكلُّ مَن يُعادي الرُّسلَ داخلٌ فيهم.

سِرُّ تقييدِ الفعلِ بالجارِّ والمجرورِ، والمُرادُ بكافِ الخطابِ في: ﴿لَكَ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾ جاءَ مُقيَّدًا بالجارِّ والمجرورِ ﴿لَكَ﴾؛ تحقيقًا للتَّخصيصِ والتَّوجيهِ، فقولُهُ: ﴿لَكَ﴾ يوضّحُ أنّ هذا القولَ موجَّهٌ خصّيصًا للنبيّ ﷺ ، وفي ذلك إظهارٌ لعنايةِ اللّهِ سبحانه برسوله الكريم؛ إذْ وجَّهَ إليه الخطابَ مباشرةً.

ضميرُ الخِطابِ يدلُّ على إقبالِ المُبَلِّغِ على المُبَلَّغِ في الحوارِ

كما أنَّ التَّقييدَ بلامِ الجرِّ وكافِ الخطابِ في: ﴿لَكَ﴾ فيه إشارةٌ إلى المُعاناةِ الشَّخصيَّةِ للرّسولِ ﷺ ، بجعلِ الأذى الذي يتعرَّضُ له من أقاويلِ المشركين شخصيًّا لصيقًا بذاتِهِ الشَّريفةِ.

وعلى اعتبارِ أنَّ القائلَ هو اللّه؛ فالتَّقييدُ بـ﴿لَكَ﴾ يُشعِرُ بإيصالِ الأُنس إلى قلبِ الرَّسولِ ﷺ وشخصِهِ، فيشعر بأنّ اللّهَ ظهيرٌ له قائمٌ عليه، فيتسلّى ويَتثبّتُ، فضلًا عمّا في ذلك من التَّشريفِ الظّاهرِ.

كما أنّ الخطابَ بـ﴿لَكَ﴾ فيه ربْطٌ للرَّسول ﷺ بسبيل الرُّسلِ السّابقين، كأنّه يقولُ له: (ألحقناك بفريقهم ونَظَمْناك في جماعتِهم، فلا عجبَ أنْ يُقال لكَ ما قيلَ لهم، فما جرى عليهم يجري عليكَ).

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿قَدْ﴾:

التَّقريبُ والتّوقّعُ تمهيدٌ لتحقيقِ المعنى وتثبيتِهِ

التَّعبير بـ﴿قَدْ﴾ في قوله: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ﴾ يُفيدُ التَّحقيقَ والتَّقريبَ والتَّوقُّعَ[1]؛ فأفادَ تحقيقَ الفعلِ في الزَّمنِ الماضي؛ أيْ: ذلك المَقولُ للرُّسلِ حاصلٌ لا ريبَ فيه، وأفادَ كذلك التَّقريبَ، أيْ: تقريب الحَدَثِ الماضي من الحاضرِ؛ أيْ: ذلك الذي قيلَ للرُّسلِ من قبلِكَ ليس بعيدًا عنك؛ بل هو مَسموعٌ متواترٌ قريبُ الحصول من زمانِك. والذي يُعزِّز إفادةَ ﴿قَدْ﴾ - هنا - لمعنى التَّقريب - دخول ﴿مِن﴾ الابتدائيّة على الظَّرفِ ﴿مِن قَبْلِكَ﴾. وتُفيد أيضًا هنا معنى التوقّعِ؛ أي: القيلُ الموحَى إليك من الله، أو القيْلُ المؤذي من الكافرين إليك، حصولُ مثيلِهِ للرّسل قبلك، ووقوعه على غِرار ما وقع لهم، شيءٌ مُتوقَّعٌ لا استبعادَ فيه.

والجمعُ بين معاني التَّحقيقِ والتّقريب والتّوقّع بما أفادته ﴿قَدْ﴾ في هذا السّياقِ له آثارٌ معنويَّةٌ مقصودةٌ:

منها: التّأكيدُ على أنّ ما قيل للرُّسل السّابقين ليس مُجرَّدَ احتمالٍ أو ظنٍّ؛ بل هو أمرٌ وقع يقينًا في الماضي، ممّا يُظهِر أنّ ما يواجهه النّبيّ ﷺ هو جزءٌ من سُنّةِ اللهِ الثّابتةِ، فالتّعبير بـ﴿قَدْ﴾ يُسهِم في تعزيزِ وترسيخِ سُنَّةِ اللهِ في رُسُلِهِ، بما يُجلّيها ويُظهرُها على أتمِّ ما يكونُ.

ومنها: تسريعُ إيصالِ المعلومةِ؛ فالتعبير بـ﴿قَدْ﴾ يُسرِّع إيصالَ

(1) السّامرّائيّ، معاني النحو: 3/ 309.

فكرةِ أنَّ الأذى الذي يُعانيه النّبيُّ ﷺ ليس بِدْعًا، فهو أمرٌ مُحقَّقٌ ومُطَّرِدٌ، ممّا يجعل النَّبيَّ يتلقّى الموقِفَ بجاهزيّةٍ أعمقَ وأسرعَ.

ومنها: أنّ التَّعبيرَ بـ﴿قَدْ﴾ كما أظهر سُنَّةَ اللّهِ الثّابتة أشدَّ الظُّهور، فإنّه يُجلّي الرَّحمةَ الإلهيَّةَ والعنايةَ الربّانيّةَ - تمامًا على التي هي أحسنُ - برسولِهِ ﷺ، إذ تحقيقُ المضمونِ بـ﴿قَدْ﴾ ما هو إلّا ضربٌ من ضروبِ التَّخفيفِ وإنزالِ المَرحَمَةِ والتّسليةِ والتّثبيتِ بقلبِ النّبيّ ﷺ، فحين يُخاطَب بقياسِ حالِهِ على حالِ الأخيارِ المُرسلين قبلَهُ، ويُساقُ هذا القياسُ مُحقَّقًا بـ﴿قَدْ﴾، فما هذا التَّحقيق إلّا لمزيدِ العنايةِ والرِّعايةِ.

معنى ﴿مِن﴾ ودلالتُها في: ﴿مِن قَبْلِكَ﴾:

اقترانُ ﴿مِن﴾ بالظّرفِ في قولِهِ: ﴿لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾؛ للدّلالةِ على عدمِ استغراقِ زمانِ القبليّة[1]، ففيهِ إشارةٌ إلى شيئَيْن: **الأوّل:** الرُّسل في الزَّمانِ القريبِ من النَّبيِّ ﷺ، وليس كلّ الرّسلِ في كلِّ زمنٍ؛ لأنّ القياسَ يحصلُ بالأُنموذجِ المعهودِ، لا بكلِّ أنموذجٍ، وألصقُ أنموذجٍ بالعهدِ: القريبُ، ولذلك حصلَ القياسَ في الآيةِ برسُلِ جزْءِ القبليَّة (القبليّةِ القريبةِ أو المُتأخِّرةِ في الزّمنِ)، لا كلّ زمنِ القبليَّةِ (القبليّة البعيدةِ أو الأوّليّةِ أو المُتقدِّمة).

القدوةُ تحصلُ بالأُنموذجِ المعهودِ القريبِ

الثّاني: الإشارةُ إلى أنّ للنبيّ ﷺ عِلْمٌ واطّلاعٌ على أحوال هؤلاءِ الرّسل؛ لأنّه لو قال بإسقاط الجارّ: (للرّسل قبلك)؛ لتناولِ ذلك الرّسل على الاتّساعِ، فيدخل كلّ زمان القبليّة الجامع لكلِّ الرُّسلِ، ويلزمُ عن هذا أنْ يقعَ القياسُ على رسُلٍ لا عِلْم للرّسول ﷺ بهم، ولا اطّلاع له على أحوالِهم؛ لأنّ الرُّسلَ منهم مَن قصَّ اللّهُ أحوالَهم عليه، ومنهم مَن لم يقصُصْهم عليه، فلمّا كان القياسُ في الآية

(1) البقاعي، نَظْمُ الدُّرَرِ: 17/ 203.

محصورًا في جانبِ مَن قصّهم اللّهُ عليه دون غيرِهم؛ لاقتضاء وقوعِ القياسِ في المعلوم - لم يستغرق زمن القبليّة؛ فأدخل ﴿مِن﴾؛ إشعارًا بأنّ النّبيّ ﷺ يعلمُهُم ويستظهرُ أحوالَهُم.

غرضُ إضافةِ الظَّرفِ لكافِ الخطابِ ﴿قَبْلِكَ﴾:

التَّقييدُ بـ(لك) يدلُّ على قصديَّةِ إيصالِ البلاغِ للمُخاطَبِ

إضافةُ الظَّرفِ لكافِ الخطابِ ﴿قَبْلِكَ﴾ في قولِه: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾، ولم يقلْ: (من قبل)؛ لأنّ المُراد تعريفُ وتعيينُ تلك القبليّةِ بزمانِه ﷺ، واطّرادًا على نَسَقِ النَّظْمِ في الخطابِ، فقد قال: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾، فإذا كان ذلك الشَّأنُ مَسوقًا ﴿لَكَ﴾، فلا بدَّ أن يكون ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ بالخطابِ كذلك. ويترتَّب على ذلك آثارٌ معنويَّةٌ؛ منها: الإشارةُ إلى التَّتابُعِ التّاريخيِّ والرِّساليِّ بالتّنصيصِ بواسطةِ كافِ الخطابِ على أنَّ النبيَّ ﷺ جزءٌ من هذه السلسلةِ وطرفٌ فيها.

وإشعارُ النَّبيِّ ﷺ بأنَّه طرَفٌ في تلك الحلْقةِ يستلزمُ إيناسَه والتَّخفيفَ عنه، ولو أزالَ كافَ الخطابِ لَغابَ هذا المعنى الذي فيه تمييزٌ واضحٌ لمقامِ الرّسولِ ﷺ بين عمومِ نُظرائِه من الرُّسلِ عليهم السلام.

موقعُ جملةِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ ممّا قبلَها:

مَن اقتدى بأحدٍ في خِصالِهِ فقد اقتدى بِهِ في مصيرِهِ وعاقبتِهِ

جُملةُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ تعليليّةٌ لمضمونِ السّياقِ قبلها على معنى: (ما يُقال لك إلّا ما قد قيل للرُّسل من قبلك، فاصبرْ كما صبروا؛ لأنَّ ربَّكَ لذو مغفرةٍ عظيمةٍ لأوليائِهِ وذو عقابٍ أليمٍ لأعدائِهم، فينصر أولياءَه وينتقمُ من أعدائِهم)[1].

ويصحُّ أن تكون استئنافًا بيانيًّا جوابًا عن تقديرِ لسؤال: (ثمّ ماذا؟)، فأُجيب: (إنّ ربّك لذو مغفرةٍ لأوليائِهِ وذو عقابٍ أليمٍ لأعدائهم، وقد نَصرَ بمُقتضَى ذلك مَنْ قبلَكَ من الرّسلِ - عليهم السلام - وانتقم من أعدائِهم وسيفعلُ ذلك بك وبأعدائِكَ أيضًا)[2].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 380.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 380.

وعلى اعتبارِ أنّ القائلَ هو اللّه سبحانه، فيصحّ أن تكون جملةُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ مُفسِّرةً للمَقولِ في: ﴿مَّا يُقَالُ﴾[1]، فتكون في موقعِ البَدَلِ من الموصولِ ﴿مَّا يُقَالُ﴾[2]؛ أيْ: ما يُقال لكَ من كونِ ربِّكَ ذي مغفرةٍ وذي عقابٍ أليمٍ هو عينُ ما قيل للرُّسُلِ من قبلِكَ.

غرضُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾:

صـفـاتُ الـلـهِ ثابتةٌ لا يعتريها الأغيارُ

لم يَقُلْ في السّياقِ الكريمِ: (إنَّ ربَّكَ يغفرُ ويُعاقِبُ)، ولكنْ عبّر بالاسميّةِ في الآيةِ ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ﴾؛ لاعتباراتٍ بلاغيّةٍ ومعنويّةٍ أكثر ملاءمةً للسّياقِ.

الجملةُ الاسميّةُ (ذو مغفرةٍ ... ذو عقابٍ) تُفيدُ الثَّباتَ والديمومةَ؛ أيْ: إنّ المغفرةَ والعقابَ صفاتٌ ثابتةٌ للّه على وجهِ الدّوامِ. أمّا الجملةُ الفعليّةُ (يغفر ويعاقب) فتوحي بالتَّجدُّدِ والحدوثِ في أوقاتٍ مُعيّنةٍ، ممّا قد يُضعِف دلالةَ الثّباتِ.

التَّعبيرُ بالاسميّةِ مع أدواتِ التّوكيدِ ﴿إِنَّ﴾ و(اللام) في ﴿لَذُو﴾ يُضفي قوّةً أكبرَ في إثباتِ المعنى وتحقيقِهِ، أمّا الفعليَّةُ فهي أقلُّ قوّةً في تحقيقِ هذا التَّوكيدِ.

التّعبيرُ بالاسميَّةِ أحسنُ في تحقيقِ الإيجازِ والشُّمولِ من الفعليَّةِ، فالجملةُ الاسميّةُ قصيرةٌ موجزةٌ، لكنَّها تحمل معنًى شاملًا: (اللّهُ ذو مغفرةٍ وذو عقابٍ بشكلٍ مُطلقٍ). أمّا الجملةُ الفعليَّةُ فقد تحتاجُ إلى تفصيلٍ وإطنابٍ أكثرَ لإيصالِ معنى الشموليّةِ، كأنْ يُقال: (إنّ ربّك يغفرُ لِمَنْ تابَ ويُعاقِبُ مَنْ كفر).

التَّناسبُ مع المقامِ: فالتَّعبيرُ بالاسميَّةِ بدلالتِهِ على الثّبوتيّةِ أوفقُ وأنسبُ مع طبيعةِ السّياقِ هنا؛ فالآيةُ تُقرِّرُ حقائقَ وسُننَ إلهيَّةً ثابتةً

(1) السّمين، الدُّرّ المصون: 9/ 530.
(2) صافي، الجدول: 12/ 318.

تتعلّقُ بالمغفرةِ والعقابِ كصفتي (ذات) للّهِ سبحانه، فكان التّعبيرُ بصيغةٍ تُعزِّز هذه الثبوتيّةَ، والرّسوخ هو الأجدر.

أمّا التّعبيرُ بالفعليّة، فذلك إذا كان السّياق يتحدّثُ عن ورودِ المغفرةِ أو العقابِ في حالٍ مُعيّنةٍ، كقولِهِ: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [الأحزاب: 24]، فيُراد حينئذٍ التّنبيهُ على وقوعِ الأفعالِ في أزمنةٍ مُعيّنةٍ، لا على ثباتِ الصِّفةِ.

غرضُ التّعبيرِ بالخبرِ مُضافًا ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾:

اللهُ سبحانه هو صاحبُ صفاتِ الكمالِ والجلالِ المُختصِّ بها أصلًا

الإشارةُ إلى الملكيَّةِ الذّاتيّةِ، فجملة ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ تُفيدُ أنّ المغفرةَ مملوكةٌ للّهِ سبحانه، يمنحها لِمَنْ شاء ويُمسكها عمّن يشاءُ، فيدلّ التّعبيرُ على طلاقةِ المشيئةِ في الامتنانِ أو الحجْبِ. كما أنّ التّعبيرَ يوحي بسعةِ المغفرةِ وشمولِها، فكأنّها مخزونةٌ مكنوزةٌ عنده لا مُنتهى لها ولا حدَّ في جريانِها وفيضانِها على مَن يشاء سبحانه. بخلافِ (غفّار - غفور) التي تتعلّق بكثرةِ الفعلِ وتجدُّدِ الغفرانِ، دون تناولِ معنى الملكيّةِ الذّاتيّةِ والاتّساعِ المُطلقِ. ويكأنّ تعبيرَ (ذو مغفرة) يُشير إلى شيئَيْن: الذّات العَليّة، والصِّفة؛ فيتصوّر المخاطَبُ هذيْنِ على سبيلِ الاستقلالِ المُتوالي؛ فـ(ذو) توحي بالذّات، وكلمةُ ﴿مَغْفِرَةٍ﴾ المُضافة إليها توحي بالصّفةِ مقترنة بهذه الذّاتِ. فيتوسّع المُخاطَب في تقديرِ صفةِ المغفرةِ وتعظيمها بتصوُّرِها في نِسبتِها إلى الذّاتِ وهي مملوكةٌ للّهِ ومُطلقةٌ في يدِ قُدرتِهِ، وليست مُجرَّدَ فعلٍ يصدر عن المشيئةِ، فـ (ذو مغفرة) تُعبِّر عن صفةِ الذّاتِ الثّابتةِ الدّائمةِ، و(غفّارٌ) و(غفورٌ) أقربُ إلى صفةِ الفعلِ منها إلى الذّاتِ[1].

لطيفةُ التّناسُبِ في ختمِ الآيةِ لمعناها:

نهايةُ الدّنيا بكلِّ ما فيها جزاءٌ بالمغفرةِ أو العقابِ

خَتْمُ الآيةِ بصفتي المغفرةِ والعقابِ يؤكّد أنّ اللّهَ يحكمُ ويجزي، ممّا ينفي العبثَ والعجْزَ والإهمالَ عنه سبحانه، فيغفر لِمَنْ تاب

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 311.

ويُعاقب مَنِ استمرَّ على كُفرِهِ، ممّا يتلاءم مع مبدأِ الرَّدعِ للكافرين والتّثبيت للمؤمنين، فالتّنبيهُ على أنّ اللّهَ ذو مغفرةٍ يفيضُ على النبيّ ﷺ والمؤمنين بالأطمئنان أنّ اللّهَ يغفرُ للمؤمنين ويُجازيهم على إيمانهم وصبرِهم، بينما ذِكْرُ العقابِ يُحذِّر الكفّارَ والمُكذِّبين، فيُسلّي النبيَّ ﷺ بأنَّ اللّهَ سيأخذُ حقَّه منهم، فالمغفرةُ تسليةٌ له في نفسِه، والعقابُ تسليةٌ له بغيرِهِ. وأيضًا: الختمُ بتلك الفاصلةِ يتناسبُ مع سياقِ السّورةِ العامِّ، فالسّورةُ تتناولُ تحدّياتِ الدَّعوةِ وتكذيب الكافرين للنّبيّ ﷺ ، وختمُ الآيةِ بذِكْرِ المغفرةِ والعقابِ يُشيرُ إلى المآلِ النّهائيّ لهذا الكفاحِ الرِّساليِّ المعصومِ.

نكتةُ اصطفاءِ ﴿أَلِيمٍ﴾:

عقابُ اللهِ على قَـدْرِه كـما أنّ رحمتَه على قَدْرِه

لم يقُلْ في السّياقِ الحكيم: (وذو عقابٍ شديدٍ) رغم تناسبِهِ مع إيقاعِ الفاصلةِ قبله ﴿حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾؛ لعدمِ حصولِ المعنى من (شديد) بما يحصلُ من ﴿أَلِيمٍ﴾، فذلكَ أوفقُ مع المقامِ الذي يُقرِّرُ شموليّةَ العقابِ كما قرَّر شموليّةَ المغفرةِ، فكلمةُ ﴿أَلِيمٍ﴾ توحي بأنّ العقابَ يمتدُّ ليُؤلمَ النّفْسَ والجسدَ معًا، فيلزمُ عن ذلك شدّتُه وتأثيرُهُ العميقُ، بخلافِ وصفِ (شديد) الذي قد يُفهم منه أنّه خاصٌّ بشدّةِ العذابِ دونَ بيانِ أثرِهِ الحِسّيِّ والمعنويِّ، فالتّعبيرُ بـ ﴿أَلِيمٍ﴾ أوسع وأشمل[1].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 380.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والخمسون،
سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والخمسون، سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 52 ، 818 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-48-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 52 : المجلد الثاني والخمسون، سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-48-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0346315 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"